المطبوعات الطبية العربية في القرن التاسع عشر

عدنان تكريتي [1]

خلاصة : أول كتاب طبي صدر باللغة العربية كان مؤلفاً عن الجدري كتبه فرنسي وترجمه سوري وطُبع في القاهرة حوالي سنة 1800 . بعد ذلك بعدد من السنين ، فُتحت بالقاهرة مدرسة للطب تدرّس باللغة العربية ، سنة 1827 ، وفُتحت من بعدها مدرسة طبية مماثلة في بيروت سنة 1867 . ولقد شجعت المدرستان إصدار عديد من الكتب المدرسية والمعاجم والمجلات الطبية العربية . ورغم قلة المعلومات المتاحة ، فإن هذه المقالة تحاول استعراض المطبوعات الطبية العربية التي صدرت في عصر هاتين المدرستين الرائدتين في القرن التاسع عشر .

Arabic Medical Literature in the Nineteenth Century

ABSTRACT The first Arabic medical publication was a book on smallpox written by a French author, translated by a Syrian translator and printed in Cairo around the year 1800. A few years later in 1827, a medical school, teaching in Arabic, was opened in Cairo, followed by a similar medical school in Beirut in 1867. The two schools triggered the production of a host of Arabic textbooks, dictionaries and medical journals. Despite the lack of available information, this paper endeavours to review the Arabic medical literature that appeared at the time of these two pioneer schools in the nineteenth century.

Les publications médicales en langue arabe au dix-neuvième siècle

RÉSUMÉ Le premier ouvrage médical en langue arabe était un livre sur la variole rédigé par un auteur français, traduit par un traducteur syrien et imprimé au Caire aux alentours de 1800. Quelques années plus tard en 1827, une école de médecine dispensant un enseignement en arabe s'est ouverte au Caire, suivie en 1867 par une autre du même genre à Beyrouth. Les deux écoles ont ouvert la voie à la production en langue arabe de nombreux manuels, dictionnaires et revues de santé. Malgré le peu d'informations disponibles, l'auteur du présent article cherche à passer en revue les publications médicales en langue arabe qui ont paru à l'époque de ces deux écoles pionnières au dix-neuvième siècle.

Professor of Bacteriology, Faculty of Medicine, University of Damascus. Damascus, Syrian Arab Republic.

(1) أستاذ علم الجراثيم ، كلية الطب ، جامعة دمشق ، دمشق ، الجمهورية العربية السورية .

بادئ ذي بدء ، لابدّ من الإشارة ـ ونحن نحاول رصد المطبوعات الطبية العربية في القرن التاسع عشر ـ إلى أن الأمر ليس باليسير ؛ إذ لا تتوافر بين أيدينا مصادر تفي بغرض الإحاطة الشاملة بالموضوع المطلوب من كافة جوانبه . ومع ذلك ، فلن يثنينا هذا عن المضي في محاولة ورود المتاح واستقاء ما يمكن من معلومات كي نسهم قدر المستطاع في تسجيل بعض أحداث حقبة هامة من حياة أمتنا العلمية .

يرجع تاريخ أول كتاب طبي نُشـــر بالعربية في القرن التاسع عشر إلى أيام حملة نابليون على مصـــر (1798 ـ 1801) ، حينما ألّف الطبيب الفرنسي دو جنيت رسالة عن « مرض الجدري » ترجمها أنطون رفائيل زاخور السوري ، وطبعت في مطبعة الحملة وفي أثنائها . ولم نعثر فيما وصل إلينا من مصادر على كتاب طبي آخر نُشر بالعربية في تلك الحقبة . ولكن ظهرت بعد سنوات قليلة من ذلك حركة ازدهار في المطبوعات الطبية تمركزت في مدينتي القاهرة وبيروت بسبب إنشاء مدرسة للطب في كلٍّ منهما تدرّس العلوم بالعربية . وقد ترافقت مرحلة تأسيس هاتين المدرستين وبقائهما عربيتي اللغة بصدور عدد كبير من الكتب والمعجمات والمجلات الطبية .

كتـــب مدرســـة القاهـرة

أنشأ محمد علي في القاهرة مدرسة للطب ارتبطت فيها مسيرة التأليف والترجمة ارتباطاً وثيقاً بطرق التعليم وبالأفراد الذين قاموا عليها وبالطلاب الذين تخرجوا منها . فحينما فتحت المدرسة أبوابها سنة 1827 كلّف محمد علي الطبيبَ الفرنسي كلوت تولّي أمورها . وكانت اللغة من أكبر العثرات التي صادفها . فالذين اختارهم لتقع على عاتقهم مسؤولية التعليم كانوا أجانب يجهلون العربية والطلاب لا يحسنون غيرها. فلجأ كلوت إلى عدد من المترجمين لينقلوا إلى العربية ما يحاضر به الأستاذ ، ويسجل الطلاب ما يقوله المترجم . ولكن سرعان ما لوحظ الضعف الشديد الذي اكتنف هذه الطريقة ، ولذا جرى تكليف المترجمين أنفسهم بترجمة الكتب إلى العربية . ونشأ يومئذ تقليد يقضي بألاّ يَنقُل المصدر الواحد إلى العربية إلا مترجم واحد . وقد كان المترجمون جميـــعهم من السوريين ونذكر منهم : حنا عنحوري ، ويعدُّ أفضلهم ، وقام بترجمة سبعة كتب طبية مختلفة في تخصصاتها ، وجورج فيدال الحلبي ونقل إلى العربية كتابين يتصلان بالصحة العمومية ، وأغسطين سكاكيني الدمشقي الذي ترجم كتاباً واحداً فقط ، ويعقوب وترجم كتابين يتصلان بالأقراباذين ، وأنطون رفائيل زاخور ، الذي سبق ذكره ، والذي ترجم رسالة « مرض الجدري » إبّان الحملة الفرنسية ونقل إلى العربية مصدرين بعد افتتاح المدرسة ، أحدهما في الفيزيولوجيا والآخر في التشـــريح .

كان إلمام هؤلاء بالعربية قليلاً ، فأتت ترجماتهم ركيكة العبارة بخالطها الكثير من العجمة لتأثُّرها بالصياغة التركية وبالألفاظ غير الفصيحة ، إضافة إلى غربتهم عن العلوم الطبية . ولذا رأى القائمون على النهضة العلمية أن لا مناص من إيجاد وسيلة لتقويم ما اعوجّ من أســلوب المترجمين ، فوضعوا قاعدة أخرى تقضي باختيار جماعة من ألمع شيوخ الأزهر ، أطلقوا عليهم اسم المصححين ، ليتولّوا إعادة صياغة عبارات المترجمين على نحو عربي سليم وضبطها وفق أحكام اللغة . ونذكر من هؤلاء محمد عمران الهراوي ، وأحمد حسن الرشيدي ، ومحمد محرم ، وغانم الرشـيدي ، وسالم عوض القنياتي، ومحمد النونسي ، وإبراهيم الدسوقي [1] ؛ وقد كان لهم جميعاً فضل كبير في تقويم لغة المترجمات وصوغ جملها في قالب صحيح .

[1] أما رفاعة الطهطاوي فلم يبق إلا نحو سنتين في مدرسة الطب تولى فيهما الإشراف على الترجمة وتدريس الفرنسية .

وبدأ إيفاد أفضل الطلاب المتخرجين سنة بعد سنة إلى فرنسا بغية التخصص وتعميق المعارف ، وتمّ تعيين غالبيتهم مدرّسين بعد عودتهم . ودرج هؤلاء على تخير أفضل الكتب التي عرفوها ليقوموا بتعليمها وترجمتها . ومن هؤلاء على هيبة الذي نقل إلى العربية كتابين في الفيزيولوجيا وواحداً في التوليد ، وإبراهيم النبراوي الذي ترجم أربعة كتب تتصل بالتشريح والتشريح المرضي والأربطة الجراحية ، وأحمد حسن الرشيدي الذي ترجم ستة كتب في مختلف الشعب الطبية ، وتذكر بعض المصادر أنه ألف تسعة غيرها . ومنهم أيضاً حسين غانم الرشيدي الذي نقل كتابين إلى العربية ، وعيسوي النحراوي الذي ترجم كتاباً في التشريح العام ، ومحمد الشباسي الذي ترجم كتابين أحدهما في التشريح الخاص ويقع في ثلاثة أجزاء ويضم 1320 صفحة ، ومحمد الشافعي الذي نقل إلى العربية ثلاثة كتب أحدها في التشخيص ومعالجة الأمراض ويتألف من أربعة أجزاء .

واستمر العمل بالطريقة التي تُعرض فيها الترجمات على المصححين لتهذيب لغتها باستثناء ما نقله أفراد قلائل متضلّعون في اللغة كالرشيديّين اللذين امتلكا ناصيتها قبل دراستهما الطب . وممّا لا ريب فيه أن ما قدمه الأطباء المترجمون من إنتاج فاق إنتاج سابقيهم من السوريين ؛ ولكن لابدّ من القول إن مهتهم كانت أيسر أيضاً ، إذ إن معرفتهم باللغتين العربية والفرنسية كانت أوسع واطلاعهم على العلوم الطبية أعمق وأتم .

وتابعت حركة تأليف الكتب الطبية وترجمتها نشاطها حتى آخر حياة محمد علي (1849) . ويقدّر عدد ما طبع منها في عهده بنحو واحد وثلاثين كتاباً . إلا أن هذه الحركة تباطأت وتعثرت خطاهـــا في أيام عباس وســـعيد (1849 ـ 1863) ، ثم عادت فانتعشت في زمن إسماعيل (1863 ـ 1879) . وقد عني هذا عناية خاصـــة بمدرسة الطب ممّا أدى إلى تقدمها السريع في عهده حتى تجاوز عدد طلابها المئة . وقد رأى ، حينما أعاد تنظيمها ، أنها خرّجت في حكم جده عدداً كبيراً من الكفاءات الطبية يمكن الاعتماد عليها وتُغني عن استدعاء الأجانب للتدريس . ولهذا فحينما تولّى محمد علي البقلي نظارة المدرسة سنة 1867 ضمّت أربعة عشر أستاذاً من المصريين . أما الكتب فبقيت حتى في هذا العهد منها ما هو مطبوع ومنها ما هو قيد الترجمة أو التأليف . وقد كتب حسين عودة الدمشقي الذي تعلم فيهـــا : « ... والكتب المذكورة بعضها مطبوع والآخر باق تحت الترجمة يكتبه التلميذ بيده مدة السنة وذلك مثل كتاب الرمـــد وخلافه » ، وقال أيضـــا « ... والكتب الطبية المطبوعة بهذه المدرسة فهي عديدة فنرى الأطباء يهرعون لاجتنائها وهم كثيرون » . [2] وكان معظم المؤلفين في ذاك الوقت من المصريين .

ومن الأمور الجديدة التي دخلت على المطبوعات الطبية في تلك الحقبة فهرسة مفردات بعض الكتب . فقد ذكر أبو الحسن الحسيني الشيرازي في رسـالته « الجوهرة السنية » [3] ما يلي: « جمع الألمعي الطبيب واللوذعي الأديب حضرة حسين أفندي عودة الدمشقي ... فهرسة كتاب عمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج ويسمى بالمادة الطبية للمرحوم السيد أحمد أفندي الرشيدي الحكيم ... ورتّبت جواهرها الثمينة الصّحاح في رسالة على ترتيب المصباح ليسهل بها مطالعته ولأجل ما رام من عموم النفع طبعها بالمطبعة العامرة الخديوية » . كما يلاحظ صدور مطبوعات لأطباء من خريجي هذه المدرسة من غير أن يكونوا من

[2] الرحلة العودية إلى الديار المصرية . تأليف الطبيب حسين عودة الدمشقي ، طبعت في مطبعة حجر بجوار الامام الحسين في ذي القعدة 1291 هـ (1873 م) .

[3] مطبوعة بطريقة الحجر ، وذكر المؤلف انها طبعت سنة 1292 هـ ولكنه لم يأت على ذكر اسم المطبعة .

الهيئة التعليمية فيها ؛ فقد ذكر الشيرازي نفسه وفي الرسالة ذاتها عن حسين عودة الدمشقي : « ... ومنها تأليفه الرسالة اللطيفة التي سمّاها بالمرشدة العودية في إثبات الكيميا الطبية الحقيقية ونفي الكيميا الهزلية التي جرى طبعها في روضة المدارس المصرية » . واستمر الأساتذة في التأليف والترجمة في عهد عباس حلمي (1892) ، ونذكر منهم على سبيل المثال إبراهيم حسن ناظر المدرسة وأستاذ الأمراض الباطنية فيها الذي ألّف كتاب « جامعة الدروس السنوية في الأمراض الباطنية » ، وطبعة سنة 1893 .

لقد كانت الغاية الأولى من وضع هذه الكتب كلّها ، التي ظهرت منذ فجر نشاط حركة المطبوعات الطبية وحتى أواخر القرن التاسع عشر ، هي خدمة التعليم الطبي ؛ ولذا جاءت كلها مدرسيّة المنحى والهدف والمضمون . ولم يشذّ عن هذه القاعدة إلا كتابان ظهرا في البدء من تأليف كلوت هما : « كنوز الصحة ويواقيت المنحة » و« الدور الغوال في معالجة أمراض الأطفال » ؛ إذ وضعهما على نحو مبسّط يجعل محتواهما سهل التناول من جانب غير الأطباء ، كما ألّف رسالتين لخدمة الحالة الصحية العامة هما : « رسالة في الطاعون » و« رسالة في علاج الطاعون » . ولم نلاحظ فيما عدا ذلك ـ في المصادر التي عرفناها ـ ذكر مصنّفات طبية ميسّرة كتبت خصّيصاً للسواد وصدرت عن القاهرة .

ولقد كانت الكتب التي تم انتقاؤها للترجمة في بادئ الأمر من مؤلّفات أفراد ذوي شهرة واسعة في أوروبا في ذاك العصر مثل فرنشيسكو فاكا ، ثم تلتها كتب وضعها المدرّسون الفرنسيون مثل كلوت وبيرون وغيرهما . وبعد ذلك أتت مرحلة اتسمت كتبها بالتأليف المباشر باللغة العربية ، وهي التي وضعها الأساتذة المصريون أنفسهم مثل كتاب محمد رضوان في الأمراض الجلدية وكتاب إبراهيم حسن في الأمراض الباطنية . وبلغ من نشاط بعضهم وضعهم أكثر من مؤلف واحد ؛ ومن هؤلاء عيسى حمدي الذي طبع أربعة كتب هي : هبة المحتاج في الطب الباطن والعلاج ، ولمحات السعادة في فن الولادة ، وبلوغ الآمال في صحة الحوامل والأطفال ، ونتائج الأقوال في الأمراض الباطنية للأطفال . وهناك مصنّفات أخرى نقلت إلى العربية وتمّت طباعتها من غير أن تُنسب إلى مؤلف معيّن . وأكثر ما يلاحظ ظهور مثل هذه الكتب في العقدين الأولين من إنشاء المدرسة .

لقد كان المصحّحون ، في هذه المراحل كلها ، هم الذين يضعون عنوان الكتاب ، ويحررون له مقدمة وخاتمة . وقد التزم معظمهم السجع في ذلك متأثرين بالأسلوب الشائع يومئذ . وممّا يؤخذ على الكتب المترجمة أن عنوانها لا يوضح اسم المصدر الذي نُقلت إلى العربية منه ، كقولهم : « مبلغ البراح في علم الجراح » و « منتهى الأغراض في علم الأمراض » . أمّا المقدمات والخاتمات فكانت تذكر اسم ناظر المدرسة واسمي المترجم والمصحح وتكيل للجميع النعوت الحسنة والخصائص المتميزة بأسلوب مسجع . وقد تأتي أحياناً على ذكر السبب الدافع إلى الترجمة ، أو الشخص الذي أوصى بذلك ، وقد يشار فيها إلى عدد النسخ المطبوعة واسم المطبعة . ومع كل هذه التفصيلات ربما أغفل اسم المصدر ، واسم مؤلفه أحياناً . وإذا ما ذكر المؤلف أسبغت عليه صفات علمية جمّة مثل : « الماهر اللبيب واللوذعي الأديب الحكيم الكيمياوي ... » . ونرجح أن الابتعاد عن ذكر اسم المؤلف في بعض منها يعود إلى أن المشرف على ترجمة الكتاب كان يعتمد مصدراً يقدم بعض فصوله ، ويؤخر أخرى ، ويحذف غيرها ، ثم يضيف ما يراه مناسباً من مؤلفات ثانية ، فيفقد الكتاب هويته الأساسية ، ولذا يهمل اسم المؤلف الأصلي . ولقد اتبع منهج التعديل والإضافات حتى في المطبوعات التي أتى فيها اسم صاحبها . ومما ذكره أحمد حسن الرشيدي في مقدمة كتاب « ضياء النيرّين في مداواة العينين » من وضع لورانس : « لقد أضفت إليه نبذة من كتاب الحكيم والير النمساوي في كيفية تحضير أدوية العين واستعمالها في التداوي وزدت على ذلك جملة مستحضرات

تستعمل هنا ومركبات من نحو أكحال ومراهم التقطتها من المؤلفات الجليلة ليكون المرتساد جامعاً لكل فضيلة » .

ولكن لئن حرصت المقدمات والخاتمات على الزخرف اللغوي في إنشائها ، فإن النصوص الطبية نفسها كانت ذات أسلوب عربي صحيح ، بعيد عن تكلف اللفظ ، خال من السجع . ويرجع الفضل إلى هذه الكتب ـ مترجمةً كانت أم مؤلَّفة ـ في إرساء قواعد صياغة الجملة الطبية في العصر الحديث بلغة عربية سليمة . والسبب في ذلك هو تمثل الأطباء المصريين أسلوب التعبير العلمي الذي أخذوه عن اللغة الفرنسية التي أتموا دراستهم بها ، وإلى تأثير المتضلِّعين من العربية الذين قاموا على تصحيح النصوص لغوياً . وقد تضمنت هذه النصوص مصطلحات توصَّل المصححون إلى استخراجها من الكتب العربية القديمة ، كما شملت ألفاظاً تم إيجادها بالاشتقاق والمجاز والتعريب . وبذا حلوا مشكلة المصطلحات بمنطق عقلاني بعيد عن الجمود والانكماش .

ومن الملاحظ في هذه المطبوعات كلها خلوها من أية كلمات مكتوبة بأحرف لاتينية مقابل المفردات العربية . ولا يصادف قارئها حرفاً لاتينياً فيها مع أن هذه الحروف كانت متوافرة في مطبعة بولاق التي طَبَعَت عدداً كبيراً منها . وقد اتُّبع في أحوال نادرة منهج الطهطاوي في وضع مسارد في آخر الكتاب ، رُتِّبت فيها الكلمات المراد شرحها وفق حروف المعجم ، وكتبت الكلمة الأجنبية بأحرف عربية مع مراعاة نطقها بالفرنسية ، وألحق الشرح بها .

لقد قُدِّر عدد الكتب الطبية التي تمت طباعتها منذ تأسيس مدرسة الطب وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، أو على وجه الضبط حتى سنة 1898 حين إيقاف التدريس بالعربية فيها ، بنحو 76 كتاباً . ولكن يبقى هذا الرقم غير محكم لفقدان العديد منها ، وعدم توافر قوائم كاملة بأسمائها . كما أن ما نشره الفرنسيون من مقالات بهذا الصدد في ذاك الوقت يشوبه الخطأ ويخالطه النقص ، وعلى الخصوص ما اتصل منه بالكتب التي ألَّفها العرب في زمن إسماعيل وما بعده .

وكان عدد النسخ التي تطبع من كل كتاب نحو ألف نسخة ، وهناك بعض منها أعيدت طباعته أكثر من مرة مثل : « كنوز الصحة ويواقيت المنحة » الذي ألَّفه كلوت وترجمه الشافعي وطُبع أربع مرات (وتقول بعض المصادر سبع مرات) ، وكتاب « الأزهار البديعة في علم الطبيعة » الذي طُبع مرتين ، الأولى سنة 1838 والثانية سنة 1854 . وكانت الكتب توزَّع في البدء على طلاب المدرسة بعد اقتطاع ثمن تكلفتها من مرتَّباتهم ، ثم رأت الحكومة في سنة 1841 أن تقدمها إليهم مجاناً على أن تستردها منهم في نهاية العام الدراسي . وفي مرحلة لاحقة قرر ديوان المدارس إعطاءها لهم بلا مقابل ولا استرداد . أما الذين كانوا يودون الحصول على هذه الكتب من غير الطلاب فقد توجَّب عليهم دفع ثمنها .

ويحق لنا التساؤل عن المستوى العلمي لهذه الكتب وإن يكن من الصعب الحكم عليها اعتماداً على معارفنا الحالية ، فالبون بين زمننا وزمن وضعها كبير ، وتسارع المكتشفات الطبية في العقود الأخيرة أمر مذهل . ولذا لن يكون القياس صحيحا إلا إذا عُقدت الموازنة ضمن حدود العلوم الصحية في ذاك العصر ، وأُجريت مقابلةَ سويَّة الأطباء المتخرجين من هذه المدرسة بسويَّة أقرانهم المتخرجين من مدارس أخرى . وتظهر البيّنات أن الطلاب الذين أوفدوا إلى فرنسا للتخصص تابعوا دراستهم بيسر في جامعاتها ، حتى لقد نبغ بعضهم في نواحي طبية بارزة وكان موضع تقدير وتكريم . ونذكر على سبيل المثال محمد علوي الذي تخرج من مدرسة

القاهرة سنة 1875 ، وذهب إلى مونبلييه للتخصص في أمراض العين ، فبرع هناك، وعُيّن رئيساً لعيادة أمراض العيون فيها ، ومُنح وساماً على دراسته التي سمّاها « مباحث في أنسجة الملتحمة في قرنية عيون الحيوانات الفقارية » ، كما ألّف عام 1893 « التحفة العباسية في الأمراض العينية » . وليس ذلك بمستغرب ، إذ إن المناهج التي اتُّبعت منذ البداية والتي استمر العمل بها حتى نهاية التدريس بالعربية (1898) ، كانت نسخةً مماثلة لما يطبَّق في مدارس الطب في فرنسا يومئذ ، كما كانت الكتب بمجملها صورةً معدَّلة لما كان يرجع إليه طلاب ذاك البلد . وقد أهّلت تلك الكتب طلاب مدرسة القاهرة لكي يتخرجوا منها ولديهم زاد واف من المعارف يجعل مستواهم العلمي مماثلاً لمستوى أولئك الذين نهلوا العلوم الطبية من مصادر أخرى غير فرنسية . والبرهان الساطع على ذلك هو نجاح الطلاب بيسر وسهولة في اجتياز الامتحان العام الذي كان يُفرض على كلٍّ من أنهى علومه في هذه المدرسة إن أراد اكتساب حق العمل في أنحاء الدولة العثمانية ، وهو الامتحان الذي كان يجري في الآستانة . وكذلك فإن هذه المدرسة اكتسبت سمعة علمية حسنة في بلاد العرب كلها ، فكانت قبلة من يريد الاستزادة من العلوم الصحية . وقد ذكرت مجلة « الجوائب » [4] أن السلطان حسن بن عبد الرحمن سلطان مراكش « ... عيّن في الحال أحد نجباء فاس وفضلائها وهو الماجد الأكرم الشريف السيد عبد السلام العلمي طبيبه الخاص وأرسله إلى مصر لإتقان علم الطب في المدرسة المذكورة ... » .

كتب مدرسة بيروت

وأما سيرة الكتب التي تم وضعها في بيروت ، المدينة الثانية التي ازدهرت فيها حركة المطبوعات الطبية في القرن التاسع عشر ، فهي تختلف عما صدر في القاهرة في بعض النواحي وإن كانت مماثلة لها في نواحي عديدة . لقد انبثقت النهضة العلمية في بيروت ـ كما في القاهرة ـ من مدرسة للطب تعلّم بالعربية أسسها الإنجيليون عام 1867 (وهي الجامعة الأمريكية اليوم) .

وقد كان ولاة أمرها من المبشّرين الأجانب الذين دَرَسوا العلومَ الطبية في جامعات بلادهم ، وتعلّم معظمهم العربية وأتقنها في سورية ولبنان . ولهذا تميزوا بمعارفهم الطبية واللغوية ، من إنكليزية وعربية ، على حدٍ سواء . وقام التدريس وتأليف الكتب أو ترجمتها عل عاتقهم وحدهم ، ونذكر منهم : يوحنا ورتبات ، وجورج بوست ، وكلورنيليوس فان دايك ، ورتشارد يوغستوك ، وإدوين لويس . وهؤلاء هم الذين ألفّوا الكتب العربية مباشرة أو نقلوها إليها من غير استعانة بمترجمين ؛ كما لم يأتوا في كتبهم على ذكر أسماء مصحّحين قوّموا لغة مؤلفاتهم أو هذبوها ، وإن كنا لا نستطيع الجزم بعدم استرشادهم ببعض علماء اللغة من السوريين أو اللبنانيين . ولقد اتصف بعض أولئك الأستاتذة بغزارة الإنتاج ووفرته ، شأنهم في ذلك شأن أساتذة مدرسة القاهرة ، إذ كَتَب الواحد منهم في أكثر من اختصاص واحد . فلقد ألّف فان دايك مثلا « أصول الكيمياء » ، و« أصول التشخيص الطبيعي » ، وترجم « الباثولوجية الداخلية ـ أي مبادئ الطب البشري والعملي » عن روبيرت ، وهو كتاب يقع في أكثر من ألف صفحة . ووضع ورتبات خمسة كتب جامعية تتصل بالتشريح والفيزيوجيا . كما ألف بوست : « المواد الطبية أو الأقراباذين » ، و « المصباح الوضّاح في صناعة الجرّاح » ، وترجم « مبادئ التشريح والفيزيولوجيا والهيجن » عن كلفن . ووضع لويس كتاب « كيمياء الهواء والماء » . ولم يقتصر عملهم على وضع كتب جامعية بل أصدر بعضهم كتباً

(4) صحيفة أسبوعية أسّسها أحمد فارس الشدياق في الآستانة سنة 1860 ، اتصفت بانتشارها الكبير وشهرتها الواسعة . وقد جاءت النقرة المذكورة في العدد 729 (1075 م) .

صحية مبسّطة تم تأليفها لغير الأطباء . ومثال ذلك ما وضعه ورتبات من كتيّبات مثل : « أدوار الحياة عند الإنســـان » و « وصايا الشيوخ للشبان » واستمر في كتابة هذا النوع حتى بعد توقّف المدرسة عن التعليم بالعربية عام 1884 . وكذلك ألّف فان دايك سلسلة من الكتب المبسطة سمّاها « النقش في الحجر » بحثت في الكيمياء والطبيعيات والعلوم وغيرها وشملت ثمانية أجزاء . وظلت هذه المدرسة شديدة النشاط في إنتاجها المطبوعات الطبية إلى أن حدثت أزمة مذهبية داخل الجامعة نفسها ، اشترك فيها الأساتذة والطلاب ، وساعدت على الإسراع في إحلال اللغة الإنكليزية محل العربية . وبهذا « خسرت الكلية بعضها من أقدم أساتذتها وأخلصهم ، كما خسرت عدداً من الطلاب في قسمي الطب والصيدلة » [5] .

ولم تقتصر حركة التأليف والترجمة في بيروت على أساتذة المدرسة وحدهم بل سرعان ما تعدّتهم إلى خريجيها . واتصـــف الكثير من هؤلاء بوفرة الإنتاج ، فقد ألّف اسكندر البارودي عدداً من الكتب نذكر منها : « خير الأغراض في تدبير الأمراض » و « النصائح الموافقة في سن المراهقة » و « المبادئ الصحية للأحداث » ؛ وكذلك وضع خليل سعادة كتاب « الوقاية من السل الرئوي وطرق علاجه » ، وكتب إبراهيم مطر سؤلفاً عنوانه « في الأمراض الزهرية » وألّف لويس الخازن رسالة في « السل الرئوي والوقاية منه » ، وغيرهم عديدون . ومما اتّسمت به حركة الكتب الطبية التي ظهرت في بيروت في هذه الحقبة هي كونها ثنائية الاتجاه نشيطة في كليهما : فقد اتخذ تأليفُ الكتب الجامعية وترجمتُها اتجاهاً يخدم غايات الدراسة والتدريس واتّبع في ذلك منحى المناهج الأمريكية وسلك سبيلها في معالجة البحوث ، واتجاهاً آخر اجتماعياً تميّز بوضع عدد كبير من الكتب الصحية ابتغاء نشر الثقافة العامة .

وفي بيروت لم يلجأ المؤلّفون في كتاباتهم إلى السجع الذي كان متّبعاً يومذاك في وضع عناوين الكتب إلا لماماً كقولهم : « المصباح الوضّاح في صناعة الجرّاح » ؛ كما استعملوا على ندرة كلمة أجنبية معرّبة أُرفقت بشرح لها مثل : « الهيجن أو علم الصحة » . ووُضعت غالبية عناوين الكتب من غير التزام الصنعة والتكلّف . وأما المقدمات التي كانت تتصدر هذه المصنفات فقد كتبها مؤلفوها أنفسهم بلغة بعيدة عن التزويق شرحوا فيها أسباب وضع الكتاب ، وقدموا فيها نبذة عن قيمة العلم الذي سيتم بحثه ؛ كما ذكروا اسم مصدر الكتاب ومؤلّفه في حالة الترجمة . وكان الأسلوب المتبع في النصوص خالياً من السجع صحيح العبارة . وقد جنى الإنجيليون فائدة كبيرة من تطور الأسلوب العربي الذي سبق وظهر في كتب مدرسة القاهرة ، وبذا كان النهج أمامهم واضحاً والأمثلـة كثيرة وبيّنة . ومما يلفت النظر استخدامهم معظم المصطلحات التي وضعها شيوخ اللغة هناك . ولا عجب في ذلك ومدرسة بيروت تأسست بعد أربعين عاماً من بدء التدريس في القاهرة وهي لمّا تزل في أوج نشاطها العلمي . ولكن لو نظرنا بعين الفاحص المدقق إلى هذه المصطلحات لوجدنا بعض الاختلاف في حالات قليلة ؛ ومردّ ذلك هو اختلاف مصادر الثقافة بين الفريقين . لقد كان أحدهما ينهل من معين الثقافة الفرنسية ، في حين اعتمد الآخر على الثقافة الإنكليزية الامريكية . ويضاف إلى ما سبق أن المؤلّفين في مدرسة بيروت فضّلوا أحياناً استعمال المصطلح الأجنبي مرسوماً بأحرف عربية مراعين في ذلك اللفظ الإنكليزي ، فأرفقوه بالمصطلح العربي في المرة الأولى فحسب كقولهم : « التهاب البلورا أي داء الجنب » ثم متابعة استعمال « التهاب البلورا » فقط . وأما الكتب الميسّرة التي كانت تؤلّف لعامة الناس ـ سواء أكان واضعها أستاذاً أم غير ذلك ـ فقد جاءت عبارتها بسيطة واضحة وكلماتها العلمية مفسرة على نحو يفهمه غير الطبيب . ويقدّر عدد المراجع التي قام بتأليفها أساتذة هذه

[5] الجامعة الاميريكية في بيروت ـ كتاب العيد 1866 ـ 1966 ، ص 337 (شفيق جحا) .

المدرسة حوالي اثنين وثلاثين كتاباً ، وإن كنا نرى أن هذا الرقم يشمل الكتب الجامعية وغيرها . وأما الكتب الطبية التي وضعها الآخرون فمن العسير تحديد عددها وضبطـه .

المعجمـات الطبيـة

إن ضرورة تأليف الكتب الطبية ، سواء في ذلك القاهرة وبيروت ، هي التي دفعت الشيوخ المصححين والعلماء اللغويين إلى إيجاد المصطلحات أي المفردات اللازمة لتحديد المعنى العلمي على نحو دقيق . ولكن ، ومع الجهود الكبيرة التي بذلت لإيجادها ، بقيت منثورةً بين ثنايا المؤلفّات غير مجتمعة في كتاب ولا مرتّبة في معجم يستطيع طالبها الرجوع إليها بسهولة . وكان كلوت أول من فكر في حفضها في معجم ثنائي اللغة . ولتحقيق هذا الهدف انتقـى معجماً موسوعياً فرنسياً اسمه « معجم المعجمات » [6] ، وطلب إلى الأساتذة المصريين ترجمة المواد الطبية الواردة فيه تحت إشراف بيرون الفرنسي الذي يحسن العربية . فلمّا أتموا عملهم عهد إلى محمد عمر التونسي ذي العلم الوافر باللغتين العربية والفرنسية إعادة النظر فيما تمت ترجمته . وقام التونسي بعمله وأضاف عدداً من أسماء النباتات التي كان على معرفة جيدة بها ، ورتّب المواد بحسب أحرف الهجاء ، وسمّى المؤلّف « الشـــذور الذهبية في المصطلحات الطبية » . ولكن وبعد أن تولى عباس الحكم خشي كلوت على المعجم من الضياع فنقل المخطوط إلى المكتبة الامبراطورية في باريس (المكـتبة الوطنية اليوم) [7] .

وحينما تولى إسماعيل الحكم وعاد نشاط رواد التأليف والترجمة إلى سابق عهده ، تحفّز الطبيب محمود رشدي البقلي ، الموفد إلى باريس للتخصـص ، لجمع هذه المصطلحات وتأليـف أول معجم طبي ثنائي اللغة وطَبعه في باريـــس سنة 1870 وتَسميته « قاموس طبي فرنســاوي عربي » [8] . ويُعدُّ هذا المعجم أول ما طبع من المعجمات الطبية العربية ثنائية اللغة في القرن التاسع عشر . ويمتاز بأن المؤلف لم يقتصر فيه على ذكر المقابل العربي للكلمة الفرنسية ، بل أضاف كتابة اللفظ العربي بأحرف لاتينية مائلة . ومثال ذلك وضعه كلمة « صفاق » إلى جانب كلمـــة « aponévrose » ، وبينهما وبحرف مائل كلمة Al-Sifak . ويقدّر عدد مصطلحات هذا المعجم بنحو 8500 مصطلح .

ولم تتوقف صناعة المعجمات عند هذا الحد ، بل تابعت تقدمها بسبب الحاجة إليها . ففي سنة 1883 صدر أول معجم طبي عربي فرنسي ، وضعه اسكندر نعمة ، وطبعه في الإسكندرية ، وسمّاه « قاموس طبي علمي عربي فرنساوي » . ويبلغ عدد مواد هذا الكتاب وفق تقديرنا زهاء 6500 كلمة ، وفيه وضع مؤلفه الكلمة العربية وبجانبها اللفظة الفرنسية وأضاف أحياناً الاساس اللاتيني لها . وفي حال تعدد المعنى الفرنسي للكلمة العربية الواحدة لجأ إلى ايرادها كلها . ففي مقابل « أمراض العقل » مثلا جاءت ثلاث كلمات فرنسية هي : phrénopathie, vésanie, maladie mentale .

---

(6) Dictionnaire des Dictionnaires .

(7) لم يُتَحْ لهذا المعجم أن يُطبع مع أن دار الكتب المصرية تحتفظ بصورتين عنه . وقد كلّفت أحمد عيسى بمراجعته وإضافة اللفظ الإنكليزي إليه ، ولكنه لم يتجز إلا جزءاً منه طبع بست وتسعين صفحة سـنة 1914 ، ويغطي من مادة (أب) إلى مـــادة (أزدران) . وقد رتّب ألفبائياً بحسـب أوائل المصطلحات العربية ، ويعقب الكلمة شرحٌ قصير يليه المقابل الفرنسي ثم الإنكليزي .

(8) Dictionnaire Médical Français-Arabe Imprimerie Orientale-Victor Goupy Rue Garancière, 5. 1870 .

وحينما بدأت الثقافة الإنكليزية تحتل مكان الثقافة الفرنسية في مصر ، وراح الأطباء الذين تعلموا في المدرسة الإنجيلية ينتشرون في المشرق العربي ، قام خليل خير الله ـ وهو طبيب درس في مدرسة بيروت وعمل جراحا في الجيش المصري ـ بتأليف معجم سمّاه « قاموس طبي إنكليزي وعربي » ، وطبعه في القاهرة سنة 1893 . ويقدّر عدد مصطلحاته بنحو 7000 كلمة . ويبدو أنه ليس أول معجم من نوعه ، وهو ما ذكره المؤلف في مقدمته . ومما يلاحَظ فيه الأثر الواضح لمدرسة بيروت . وقد كتب صاحب هذا المعجم في المقدمة : « وقد رأيت ، رغبة في تعميم فائدته بين أطباء مصر وسوريا وصيادلتهما ، أن أجمع فيه اصطلاح مدارس البرَّين ، مشيراً إلى ما بينهما من اختلاف في تعريب ما اختلفوا في تعريبه ... » . فمثلاً : نجد إلى جانب كلمة enteralgia « ألم عصبي في الأمعاء » ، وكذلك « نفرالجيا الأمعاء » مع علامة نجمية صغيرة تشير إلى استعمالها في مدرسة بيروت .

المجلات الطبية

ومن الصفات المميزة للمطبوعات الطبية في القرن التاسع عشر ظهور مجلات طبية باللغة العربية لأول مرة. ومما لا ريب فيه أنها من الثمار الطبيعية لتدريس العلوم الطبية في القاهرة وبيروت بهذه اللغة . فبعد انقضاء ما يقرب من أربعة عقود على تأسيس مدرسة القاهرة أصبح عدد الأطباء والصيادلة الذين أتموا دراستهم فيها كبيراً ، وبات إصدار دوريّات تقدم لهم أخبار أحدث البحوث والمكتشفات أمراً ضرورياً . وأنشأت الحكومة المصرية مجلة « اليعسوب » سنة 1865 ، وتعدُّ أول مجلة من نوعها متخذة الآية الكريمة ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ شعاراً لها . وقد أشرف عليها في البدء الدكتور محمد علي البقلي والمصحح إبراهيم الدسوقي ، ثم انسحب الثاني وحل محله محمد إسماعيل . واشترك في تحرير هذه المجلة العديد من الأطباء ذوي الشهرة الكبيرة في تلك الأيام مثل : أحمد ندا ، وخليل حنفي ، وحسن عبد الرحمن ، وغيرهم من مصريين وغير مصريين . ووزعت « اليعسوب » على الأطباء وطلاب الطب مجاناً ، واستمرت حتى سنة 1877 . ثم أصدرت الحكومة المصرية سنة 1881 مجلة « المنتخب » وسلمت إدارتها إلى أحمد حمدي البقلي ، وتولى تحريرها عيسى حمدي ناظر المدرسة الطبية وساعده بعض أساتذتها كعثمان غالب في تحريرها . وقد عمل الجميع تطوعاً من غير مقابل . واتصفت هذه المجلة التي لم تدم طويلا بنشرها معارف طبية متخصصة وعامة ؛ فوردت فيها مقالات تساعد على وضع تشخيص الأمراض بطرق يسيرة وسهلة إلى جانب أخرى ترشد إلى وسائل حفظ الصحة . وقد اتصفت عبارتها بقرب التناول والخلو من التعقيد . غير أنها توقفت بعد عام واحد من بدء صدورها . وبعد أربع سنوات من احتجابها أصدر شبلي شميل مجلة « الشفاء » في القاهرة عام 1886 ، وهو من أوائل المتخرجين من مدرسة بيروت . وقد وصفها بأنها « صحيفة طبية علاجية علمية شهرية » ، وكانت أعمق مادة وأوفر بحوثاً من « اليعسوب » ومن « المنتخب » ؛ وتناولت موضوعاتها الجديد في الطب الباطني والجراحة والشعب المتصلة بهما . وشارك في تحريرها مشاهير أطباء مصر في ذاك العصر ومنهم سالم سالم ، وأحمد حمدي ، ومحمد علوي ، ولفيف من خريجي مدرسة بيروت مثل الياس زهار ، وعدد من الأطباء الأجانب ، وتوقفت سنة 1890 .

وفي أثناء صدور « الشفاء » وعقب احتجابها ظهرت في القاهرة عدة مجلات هدفت إلى نشر الوعي الصحي بين عموم الناس ولفت النظر إلى الطب الوقائي . ففي سنة 1887 أنشأ الطبيبان حسن رفقي ، وإبراهيم مصطفى أستاذ الكيمياء في مدرسة الطب ، مجلة « الصحة » التي أراداها مجلة علمية أدبية طبية . ومن الأطباء الذين ألّفوا هيئة تحريرها عيسى حمدي ، ومحمود مصطفى ، وحسن خورشيد ، مع بعض الأجانب . واستمرت في الصدور مدة خمسة أعوام . وقد اتسمت أعدادها بالعبارة البليغة واللغة المحكمة وإن استعمل محرورها الكثير من المصطلحات الأجنبية أحيانا . وقبيل توقف « الصحة » عام 1892 أصدر الدكتور شلهوب مجلة الفوائد الصحـــــــية » سنة 1891 . وممّا كتبه في مقدمة العدد الأول منها قوله : « وسأجعل من أبحاث هذه المجلة الإفاضة في طرق الطب المنعي وهو اتخاذ الاحتياطات المانعة لوقوع الداء قبل وقوعه ... وما القصد من مشروعي هذا إفادة حضرات الأطباء وإنما غرضي الأول إفادة من لم يتم لهم الإطلاع على هذه الصناعة » . ولم تستمر هذه المجلة إلا سنة واحدة ، بيد أنها عاودت الظهور عام 1902 . وفي سنة 1895 صدرت مجلة اسمها « طبيب العائلة ومرشد اللبيب عند غيبة الطبيب » استمرت حتى سنة 1920 ، وأخرى اسمها « الرائد الطبي » سنة 1896 أصدرتها جمعية المعاضدة الطبية وانتغت كلتاهما نشر الوعي الصحي .

تلك كانت لمحة عن المجلات الطبية التي صدرت في القاهرة . أما في بيروت ، وبعيد عقد من افتتاح المدرسة الإنجيلية ، أصدر جورج بوست أستاذ الجراحة والنبات فيها . مجلة « الطبيب » عام 1878 . وكانت مجلة « شهرية طبية صيدلية تنشر كل ما يهم أصحاب هاتين المهنتين » . وتناولت مقالاتها بحوثاً طبية معمقة ومشاهدات مرضية وأخباراً عن الحديث في العلوم الصحية . وبقي منشئها قائماً على تحريرها مدة ثلاث سنوات، ثم سلم إدارتها إلى شاهين مكاريوس . وفي سنة 1884 قام على أمورها بشارة زلزل وخليل سعادة واللغوي إبراهيم اليازجي . وفي عام 1890 تولى رئاسة تحريرها اسكندر الباروديّ ، واستمرت في الصدور حتى مطلع العشرينات من هذا القرن . والجدير بالذكر أنها أول دورية عربية استعملت لفظة « مجلة » بمعناها العصري . وقد أســـهمت هذه في وضع عدد كبير من المصطلحات ، واتسمت بأسلوب علمي ولغة جيدة وعبارة واضحة .

هذه هي سيرة حركة المطبوعات الطبية باللغة العربية في القرن التاسع عشر . وما الأمثلة التي أتينا على ذكرها إلا قطوف من دوحتين وارفتين ظلت أولاهما تعطي ثمارها نحو سبعين عاماً فيما استمرت الأخرى زهاء خمسة عشر عاماً . وقد تم خلال ذلك تلاقي التفكير العلمي والتعبير العربي ، مما أيقظ حيوية الأطباء في التأليف والابتكار ، وحفز على التواصل مع ما استجد من بحوث في العالم ، ونشر الثقافة الصحية على نحو واسع .